تاريخ استقبال المقال 2019/09/22 تاريخ قبول نشر المقال 2020/02/20 تاريخ نشر المقال 2020/03/01

الكتابات الجدارية في الجزائر
ما بين تراث الماضي وارهاصات الحاضر

نورة عامر –جامعة أم البواقي – الجزائر.

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية الى لفت الانتباه الى ظاهرة ممارس ة اجتماعيا من قبل شرائح شبابية، تتجسد في رسومات واختصار لكلمات وعبارات يسعى من خلالها البعض الى التصريح برأيه وموقفه والبعض الاخر يخفي بها رغيته في التنفيس عن مشاكله ونبذه للواقع المعيش، اننا وفي هذا المقام نود مناقشة موضوع الكتابات الجدارية اوالكتابات الحائطية كملمح من ملامح التغير الاجتماعي الذي يشهده المجتمع الجزائري، معرجين بنظرة تاريخية لبروز هذه الظاهرة واستفحالها، مع التطرق لاهم المرادفات الملازمة لمصطلح الكتابات الجدارية وواقع الممارسة الجدارية في الجزائر ما بين الكتابات القديمة في الماضي ومتطلبات التغيير السوسيولوجي الحالي الذي فرض نفسه، على اعتبار ان الكتابات الحائطية وهي اصل الممارسة الكتابية انما لها بدائل حاليا تتمثل في الكتابة على مختلف الجدران الالكترونية والمتمثلة في انواع فضاءات الشبكة العنكبوتية، ومهما اختلف القالب الا ان الهدف واحد.

الكلمات المفتاحية: الكتابات الجدارية ، التغيير الاجتماعي، الممارسة الاجتماعية.

Wall writings in Algeria between the heritage of the past and present indications

Abstract :

This research paper aims to draw attention to socially practiced phenomenon , By the youth segments, Embodied in drawings and abbreviations of words and expressions of which some would like to express their opinion and their position, while others hide with it their desire to vent their problems and their reality denial, in this regard, we would like to discuss the subject of graffiti or wall writings as a feature of sociological change that the Algerian society is witnessing, passing by a historical overview of the emergence of this phenomenon and its expansion, While addressing the most synonyms associated with the term wall writings and the reality of mural practice in Algeria between ancient writings in the past and the requirements of the current change that imposed itself.

Keywords: Wall writings, sociological change, social practice.

1. مقدمة

يعرف المجتمع الجزائري على غرار بقية المجتمعات الأخرى العربية والغربية تغيرات شديدة، ربما يعزى السبب الى العوامل السياسية وما تعيشه البلاد من زخم وحراك بين مختلف أطياف المجتمع وبين مختلف الشرائح العاملة والمتمدرسة والحركات الطلابية وغيرها من التكتلات والنقابات التي تهتف تارة وتركن اخرى، الشيء الذي خلف تغييرا سوسيولجيا كبيرا واضحا على ملامح البيئة الاجتماعية فتغيرت حتى المظاهر الحضرية وصار لازما علينا قراءة شخبطات وعبارات مكتملة معبرة وموجزة واخرى لا تسر الناظرين، اننا نود فتح النقاش حول ظاهرة الكتابة الجدارية او الكتابة على الجدران التي امست تغطي الجزء الاكبر من واجهات احيائنا ومنازلنا واسوار المدارس وهي حسب عديد الباحثين السوسيولوجيين انما تنم عن مظاهر التغير الاجتماعي وهي بطريقة او اخرى لهجة مساندة او مناهضة لما هو موجود.

إنها ظاهرة الكتابات أو الرسومات الجدارية أو كما يود البعض تسميتها الممارسة الحائطية، التي عرِفتها غالبية المجتمعات ولا تزال تمارس في معظم دول العالم ولكن بمستويات مختلفة؛ فعلى قدر ما هي ظاهرة أصيلة (متجذرة) في عمق التراث الإنساني، كذلك هي مواكبة جدا للأحداث الراهنة في كل البلدان ومواكِبة لكل التقنيات والوسائل الحديثة في استعمالاتها؛ وهي ليست مجرد ممارسة تنفيذية ولكنها مفهوم فَرضَ نفسه ليُستهلك اجتماعيا وذهنيا ضمن بقية المعايير السوسيولوجية الأخرى التي تحظى بدرجات متفاوتة من القبول أو الرفض.

وتأتي هذه الورقة البحثية لتدرس مفهوم الكتابات الحائطية أو الجدارية و سواء كان لغة أو اصطلاحا، ثم التطرق إلى كينونتها التاريخية وكيف هي إرث تاريخي و ممارسة إنسانية، ثم ذكر بعض المرادفات التي قد يُخطئ البعض في استعمالها، وما حال او وضع الكتابات الجدارية في الجزائر، كيف تأرخت و أين وصل مسارها؟

2. مفهوم الكتابات الجدارية:

ليس من السهل حصر مفهوم محدد وشامل في آن واحد لمصطلح الكتابات الجدارية أو الحائطية؛ وذلك تبعا لعدة عوامل: نذكر منها حداثة الموضوع من حيث اهتمام الدارسين وكذا انعدام الأرصدة المعرفية

من قبل، لذا سنحاول جاهدين صياغة بعض ما توفر لنا من معلومات تخص مصطلح الكتابات الجدارية والذي يعتبر بحسب رأينا المتواضع، موضوعا شائكا وصعب التحليل لكنه يستحق المحاولة.

1.2. لغة: تسمى بالكتابات الجدارية أو الحائطية؛ وهي ترجمة عربية لكلمة "Graffiti"، التي ترجمت أول مرة إلى اللغة العربية من قبل الباحث" **خليل أحمد خليل**" في كتابه" **مبنى الأسطورة**" عام 1979م، ومنذ ذالك الوقت شاع استعمال هذا المصطلح في اللغة العربية[1]

وبالعودة إلى المنشأ الكرونولوجي لهذا المصطلح فإن الأبحاث ترى أنها تنحدر من الأصل الإيطالي لكلمة"Graffito" وهي بدورها مشتقة من اللغة اللاتينية من الكلمة "Graphium" وتعني" الخدش" التي يعتقد المؤرخون أنها ترجع في ظهورها إلى نهاية القرن"15م"، في حين يرى بعض الباحثين في علم الاشتقاق أنها تنحدر من الأصل اليوناني "Graphein" (γράφειν) والتي تدل على الكتابة والرسم والدهن أو الطلاء على حد سواء. [2]

وتأخذ كلمة "Graffitis" بالفرنسية والانجليزية نفس المعنى، وتستعمل للدلالة على المفرد والجمع على حد سواء ولا مشكلة من إضافة حرف"S" للجمع أحيانا، وقد عربت إلى كلمة " غرافيتي"، فكثيرا ما نجد هذه المرادفة على صفحات الانترنيت، وهي في معناها المعجمي تلك الكتابة التي تجسد بخط كبير ومتميز بحيث يمكن قراءتها من بعيد، وذلك على كل أنواع الواجهات سواء العامة أو الخاصة، وحتى على الأسطح الملساء المفتوحة على المحيط.

2.2. اصطلاحا: لقد استخدم مصطلح" Graffiti" أول مرة من قبل الباحث "L'abbé Garruci" سنة 1856 م في مؤلَفه" Manuel graffiti de Pompéi"،[3] ويدل هذا المصطلح على كل أنواع التدوينات: كالتصوير الجداري، النقش أو الحفر، والرسم... وما إلى ذلك، ويتم على كل أنواع الواجهات والدعائم طبعا داخل المدن وعلى طول أسندة الأرصفة وعلى بوابات ورشات العمل والمؤسسات وأسوار المصانع ...

أما "معجم أكسفورد" فيعرف الكتابات الجدارية على أنها:" الرسم أو الكتابة على الجدران أو الأسطح مهما اختلفت صيغها وأشكالها و أمكنتها"[4]، في حين أن **المعجم العربي** طبعا والغني بمفرداته يرى بأنها:" حصيلة الضمير اللغوي البشري الذي يخزن في الذاكرة الإنسانية، وهي حصيلة تفاعل الفرد

مع اللغة ومفردات الحياة"[5]، وفي بحثنا عن مفهوم شامل لمصطلح الكتابات الجدارية صادفتنا العديد من المفاهيم التي ترمي بأبعادها إلى هذا المصطلح ومنها مرادفتي: Le graff & le tag وغيرها من العبارات ولاسيما في اللغة الفرنسية. ويترجم الدكتور" سهيل إدريس" كلمة Graffitiبأنها:" كل نقش أثري أو خربشات تمارس على الجدران أو الأبواب..."[6].

ولأن الرسم على الجدران كان الوسيلة الأولى للكتابة في التاريخ البشري، فإن كل ما نعرفه عن تفاصيل حياة الشعوب والأمم السابقة إنما مرده إلى الرسوم والرموز التي وجدت منقوشة على جدران الكهوف والمعابد والمقابر أو البيوت القديمة لذلك أطلق عليها اسم "**مدونات الماضي**"، بينما الكلمة " Graffiti" فيعود الحديث عنها إلى منتصف الستينات؛ عندما استخدمت بخاخات الأصباغ في الكتابة والرسم على الجدران وسمي حينذاك "**الفن الرذاذ**" نسبة إلى علب الدهن أو الصبغ الرذاذ التي ساعدت كثيرا على نشأة هذا التيار الفني أو شبه الفني كما يراه البعض.

أما في **علم الآثار** فإن الكتابات الجدارية إنما: "تدل على كل ما وجد مُدوَنا على الجدران، يحكي قصص شعوب خلت ويصنف ضمن الآثار التاريخية لشعب ما، لذلك اصطلح عليها ب" مدونات الماضي"[7].

وخلاصة القول: إنه من الصعب جدا الإلمام أو الاتفاق على تعريف واحد يعطي للكتابات الجدارية حق البحث والتوضيح، فهذا المصطلح يشير في مجمله إلى نمط خاص من **التيبوغرافيا** وهو كل محاولة للرسم أو تدوين العبارات، الكلمات، الرموز، الأشكال أو الإمضاءات أو حتى محاولة نقشها بمعنى حفرها داخل ذلك السطح؛ مهما اختلف هذا الأخير سواء كان جدارا إسمنتيا أو واجهة زجاجية، أعمدة الكهرباء، أرصفة الممرات أو حواف و دعائم المحلات التجارية، جذوع الأشجار و غيرها من الأسطح التي تتناسب ورغبة ممارسي ومجسدي هذه الكتابات الجدارية.

وقد اتسع مفهوم الكتابات الجدارية، فلم يبق محصورا في عملية الكتابة وإنما اتخذ كل الأشكال الممكن بها إيصال رسالة هؤلاء الكتاب الجداريين، هذه الرسالة تجسد عبر أرقام، أشكال، رموز مبهمة أو مقروءة، وقد ذهب البعض من الباحثين في هذا المجال إلى اعتبارها كنوع من الثقافات المضادة للمجتمعات؛ وهي بذلك تأخذ بعدا سلبيا وتعتبر كنمط تخريبي للمنشآت الحضرية، في حين يرى فيها

البعض نوعا من الثقافات الهامشية التي تمارسها بعض الجماعات خارج الإطار الثقافي الرسمي الذي يطبع ذلك المجتمع، وفي هذا السياق يرى الباحث" **أندرسون Andersson** "(1990) أنها:" ظاهرة عامة تشمل المجتمع الإنساني كافة، وأن كل مدينة عبر التاريخ والحضارات قد صنعت أمجادها ودونت علاماتها وكتبت ورسمت على الجدران ثقافة كانت سائدة حينذاك سواء لأفراد أو لجماعات..."، بمعنى أن هذه الكتابات قد شملت كل المجتمعات على حسب الثقافات والمعتقدات التي كانت حينها سائدة.

لكن الجدير بالذكر هنا هو أن تلك المجتمعات دونت فعلا أشكالا ورموزا وعبارات ترمي بأبعادها إلى ثقافات تلك الأمم، بيد أنها لم تدون الحقب الزمنية، وهنا يكمن الدور المهم المنوط برجال التنقيب وعلماء الآثار؛ إنها **مهمة التأريخ** لما وُجد مكتوبا ومرسوما على الجدران، إن الكتابات الجدارية كما ترى "دونيز بيلودو Denise Bilodeau"(1993):" لديها لغتها الخاصة، وهي تستلزم استخدام رموز وشفرات وتحمل المعاني التي يقصد أصحابها إيصالها، ولا شيء وجد من العدم؛ وعليه فإن فهم الكتابات الجدارية يستلزم فهم وفك لغز تلك الرموز والشفرات التي تؤكد مدى ارتباطها بالجماعة التي ينتمون إليها– أي الكتّاب– بعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم..."[8]

وتقصد" بيلودو" هنا أن هذه الكتابات الجدارية مهما كان شكلها فإنها تحمل في طياتها مضامين كثيرة كتبها أصحابها بغية إيصال رسائل معينة لأشخاص أو لجماعات معينة، أو ربما لمجتمع بأكمله، ولفهم معنى تلك المضامين يتوجب فك طلاسم وشفرات ما كتب، وحسب رأينا المتواضع طبعا فإن للكتابات الجدارية مضامين رمزية ليس من السهل الكشف عنها، رغم أنها تبدو جد سطحية لأول وهلة، وإنما تحتاج إلى التحليل لأن كتّابها عادة ينتمون إلى تلك الجماعة التي يودون إسماع أصواتهم و أفكارهم ولكن بطريقة مختلفة نوعا ما، ونعتقد أن هذا هو صلب الموضوع؛ لأن تلك الأفكار غير المصرح بها علنا من قبل شريحة ما ربما لاحقا هي التي تكوّن قاعدة التيارات المعارضة للأنظمة، أو ستسهم بشكل أو بآخر في بعض محاولات قلب الأنظمة.

إن كُتاب "الغرافيتي" هم شريحة مثلما يرى فيها الدكتور" **مصطفى حجازي**[9] "الشريحة المقهورة"؛ التي لم تنل من المجتمع إلا الفتات، تلك الشريحة و لأسباب ما ترى نفسها مهمشة بطريقة مقصودة من قبل

السلطات وحتى عامة الناس لذلك تلجأ إلى هذا الأسلوب – الكتابة على الجدران– أو غيره من الأساليب الأخرى لتقول لكل فرد من المجتمع " نحن هنا...و متواجدون باستمرار..."، وتضيف "بيلودو":" إن الكتابات الجدارية هي تعبير عن الثقافة الحضرية، وهي كثيرا ما تنتشر لدى الشباب، لكنها أيضا متواجدة أو ممارسة من قبل غالبية الطبقات الاجتماعية، بل وفي كل البلدان..."[10]، وإذا تمعنا هذا المفهوم نجد أن الكاتبة تربط وبشكل مباشر نشوء وتواجد الكتابات الجدارية في الأوساط الحضرية وهذا ما نلمحه جيدا حينما تطورت الكتابات في العصر الراهن أين نجد غالبيتها تمارس داخل المدن حيث الكثافة السكانية المرتفعة، وحيث تكثر المطالبة بالحقوق في خضم هضمها وتناسي العديد منها، لذا فإن الكتابات الجدارية هي حوصلة صراع الحياة الحضرية، ويمارسها الشباب أكثر من أي شريحة أخرى.

3. بعض مرادفات مصطلح الكتابات الجدارية" Les graffitis":

خلال بحثنا هذا حول ظاهرة الكتابات الجدارية، وطبعا في الغياب الكلي للمراجع باللغة العربية استندنا في عملية جمع المعلومات النظرية إلى المراجع باللغة الفرنسية، وقد صادفتنا عدة مرادفات تستعمل للدلالة على المعنى العام للكتابات الجدارية، غير أنها تعتبر عند بعض المختصين كتقنيات أو أساليب لهذه الممارسة بشكل عام، وسنحاول عرض البعض منها بشكل موجز:

1.3. الترذيذ Le Bombage: نسبة إلى كلمة الرذاذ أو المضخة La Bombe وهي قارورات دهن أو طلاء، ويُعتقد أن هذا المصطلح قديم نوعا ما وفي طريقه إلى الزوال، ويقصد به التدوين الذي يمارس بنوع من العنف، وعادة ما يستعمل لمهاجمة شخصية اجتماعية أو سياسية[11] .

2.3. التاق Le tag: وتستعمل هذه الكلمة في نطاق جد ضيق، ويقصد بها التدوين البسيط للإمضاءات، وتتميز بتكرار أو تغيير في بعض أجزاء تلك الإمضاءات، كاتبوا هذه الإمضاءات يحددون جيدا الحيز المكاني كما ينتقون وبدقة نوع الخط الذي يودون الكتابة به تبعا لنوعية السطح الذي ستدون عليه تلك الإمضاءات– سواء كان إسمنتيا، زجاجيا، أملسا أو غير ذلك...– ، ويمتاز نمط" التاق" بخلوه من الأخطاء الإملائية أو من إضافة أي خربشات أخرى؛ فيشمل الإمضاء فقط.

3.3. العربسة Arabesque: لغويا يمكن القول إن هذا النمط هو استلهام عربي أصيل لكلمة "عربسة"، ويعني به فن الزخرفة العربي العريق وهو "**التوريق**" أو "**الرقش**"، وقد أخذت الكلمة من الأصل العربي "عربسة"[12]، وهي مجموعة خطوط متعرجة ومتداخلة تمثل أشكالا هندسية وزهورا وأوراقا وثمارا

تصاغ في قالب فني رائع لزخرفة المساجد والقصور والقباب، وقد ظهر هذا الفن نتيجة امتزاج الحضارة العربية وتطورها في العصر الإسلامي الذهبي مع حضارات الشعوب الأخرى إلا أنه كان جليا لدى الاندلسيين الذين طوروه بشكل كبير، وقد انتشر في اوروبا ولاقى رواجا في القرنين 15و 16م وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي باسم "**Arabesque**" بالفرنسية وبالإسبانية "Atairique" أي **التوريق**؛ للدلالة على حرية اللعب بالحروف – كما يود بعض الكتّاب الجداريين قول ذلك–، ويقصد به الحرية المطلقة في تمديد خطوط الكتابة، وقد كان هذا النمط الزخرفي يرمي في معناه الأصلي إلى أولى أنواع الخطوط الكتابية العريقة، لكن غيرت أبعاده و أصبحت أهدافه منحصرة في إرضاء رغبات الكتّاب الجداريين ومحاولة إيصال رسائل معينة[13].

4.3. Le lettrage : ويستخدم هذا المصطلح عند بعض الرسامين أو الفنانين، ويحتاج إلى واجهات جد واسعة، بحيث يحمل في معانيه جملة من الرسائل المحددة و الموجزة، كما يعتبره البعض أولى بدايات الفن الكتابي الجداري.

5.3. La fresque: تأخذ معنى التصوير الجداري الذي يتم بالدهن أو الطلاء لكن بمضامين لغوية، يعتمد هذا النوع على الاستعمال الدقيق والموسع للألوان ويفضل تجسيده على الواجهات الملساء، ويسمى هذا النوع بالإيطالية "Fresco" وهو المصطلح الأنسب من حيث استعماله للدلالة على تدوينات كتّابه بواسطة الدهن سواء على الواجهات الجدارية أو الزجاجية[14].

إن الكتابات الجدارية مهما اختلفت ترجمتها ما بين لغات العالم، إلا أنها في مجملها ترمي إلى ذلك النوع الفريد و المتميز من مختلف التدوينات على الواجهات الحضرية، والتي تحمل في طياتها رسائل رمزية موجهة لكل أفراد المجتمع، يأمل ممارسوها أن تحلل وتترجم معانيها.

قد تبدو الكتابات الجدارية لأول وهلة سطحية و ساذجة، ولا تكاد تتعدى محاولات الخربشة؛ لكننا نعتقدها تحوي مؤشرات خطيرة وقوية تستوجب الاهتمام الكافي، فهي المحتوى الضمني لضمائر ترفض أن تكون نكرة، غير أن ساسة مجتمعاتها أبوا إلا أن تكون صامتة، وعبر هذه الدراسة البسيطة نود الكشف عن سيرورة هذه الكتابات التي ترمي بأبعادها (السلبية منها أو الايجابية) في صميم هيكلة المجتمع، وهي "الكتابات الجدارية" كيفما كان شكلها وحجمها ولونها؛ رموزا كانت أو عبارات، رسومات أو حتى كاريكاتير[15]، تعتبر دالة بذاتها تفيد بفكرة محددة، وتعبر عن موقف مساند أو معارض لكنه يود الخروج عن

صمته، إن الكتابات الجدارية هي الرسائل الصامتة لضمائر ناطقة " نحن جزء من هذا الكون فاستديروا لنا...".

4. الكتابات الجدارية في الجزائر:

شهدت الجزائر على غرار بقية الدول العربية موجة الكتابات الجدارية التي راحت تكسي غالبية جدران أحيائها، والتي انتشرت بشكل مكثف في العاصمة وضواحيها، وكذا بقية المدن الكبرى كوهران وقسنطينة، عنابة، سطيف، تيزي وزو وغيرها من الولايات، حيث الكثافة السكانية مرتفعة وجملة العوامل الاقتصادية والسياسية متفاقمة، وهي في الجزائر شأنها شأن بقية دول العالم، تنتشر في أزقة الأحياء الفقيرة والشعبية منها على وجه الخصوص، وكي نلم بها أكثر فإننا وفي مجمل ما توفر لنا من معلومات سنحاول ذكرها خلال مراحلها الكرونولوجية:

1.4. الكتابة الجدارية في الجزائر ما بين الماضي والحاضر:

إن الكتابات الجدارية في الجزائر بغض النظر عن عصور ما قبل التاريخ، فإنها ارتبطت وبشكل مباشر بجملة الأحداث والظروف التي كانت سائدة، وإن كانت بدايتها خلال فترة الاستعمار، إذ اتخذت في ذلك الوقت طابعا رياضيا تبعا للتنافس الذي كان بين الأندية الرياضية، والذي امتد إلى تنافس بين الأنصار في الشوارع والأحياء، حيث يخلد كل طرف النتائج التي حققها فريقه خاصة مع بروز" الأندية المسلمة" بداية بنادي "مولودية الجزائر" الذي تأسس ليلة المولد النبوي الشريف عام 1921م وقد اشتق اسمه من تلك الليلة، وكان يدعمه عرب وبربر العاصمة الذين دونوا على الجدران نتائجه الساحقة التي قهر بها الأندية الأوروبية، وكانت تلك الكتابات تذكيرا لخصومهم بتفوقهم، وقد فسر المؤرخون ذلك التصرف على أنه فعل وطني كان يعبر عن التمييز والاعتزاز بالذات وبالقدرة على قهر من استعمر البلاد لمدة عقود وحكمها بالحديد والنار وأذل أهلها وسلب خيراتها، كما كانت أسماء الملاكمين الجزائريين الذين تفوقوا على الأوروبيين تملأ الجدران والأماكن العمومية لتذكير الأوربيين بهزائمهم، وحين بدأت الأحزاب الوطنية الجزائرية تشارك في الانتخابات البرلمانية المحلية التي كانت تنظمها سلطات الاحتلال، غدت الكتابة على الجدران وسيلة تعبئة شعبية إما للمشاركة في العملية الانتخابية أو لمقاطعتها، وهذا يعني أن الكتابات الجدارية كانت ملازمة للأحداث السياسية آنذاك، حيث كانت أول من أخبر الجزائريين باندلاع الثورة المسلحة بعد تزوير الإدارة الاستعمارية نتائج الانتخابات العامة التي جرت عام 1947م وفازت بها

الأحزاب الوطنية على الأحزاب الفرنسية، وبعدها برزت كتابات مجهولة المصدر تشير إلى عدم جدوى العمل السياسي وحتمية تغيير التعامل مع الفرنسيين، و " أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"[16].

وتزامنا مع اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954م انتشرت الكتابات في كل المدن التي أخذت طابعا تعبيريا عنها، وكذلك طابعا إعلاميا عن انطلاقها، فظهرت هذه الكتابات بعبارات عديدة منها "اسم جبهة التحرير الوطني" وكذلك "الجزائر مسلمة" كرد فعل على عبارة " الجزائر فرنسية ". وبتطور الثورة التحريرية وحجب جميع الصحف التي كانت تصدر بأقلام جزائرية؛ تحولت جدران المدن إلى مساحات إعلامية يكتبها أطفال صغار حملوا قضية كبيرة وأرهقوا الإدارة الفرنسية بتصرفهم هذا وبعنادهم، فخصصت فرقا كاملة لملاحقتهم ومحو ما يكتبونه يوميا، كما خصصت جوائز لمن يلقي القبض عليهم وسجنت عددا كبيرا من الأطفال لمجرد الاشتباه بهم واكتشاف لون الطلاء على أيديهم بتهمة الانتماء إلى "كُتاب الجدران"، حيث كانت وقتها جنحة يعاقب عليها القانون الفرنسي بالسجن، لكن هذه المكافحة ليست بدافع الحفاظ على رونق المدن والطراز المعماري كما رأينا ذلك في الدول الغربية حاليا، وإنما بتهمة تأليب الناس على الحكم والإخلال بالنظام العام، واعتبارها محرضا ومشجعا للثوار على الاستمرار في ثورتهم، وفي هذه النقطة إنما نلمح الجانب أو الطابع الثوري والسياسي الذي لعبته الكتابات الجدارية وبشكل إيجابي لصالح الدولة وحرية الوطن، وهو الشيء الذي لمسناه حاليا في تناولنا للكتابات الجدارية في فلسطين والعراق وأفغانستان.

ومع انتهاج الثوار للكتابات الجدارية وسيلة إثبات وتحد أصبح الفرنسيون بدورهم يكتبون مواقفهم المعارضة لسياسة الجنرال "شارل ديغول" حيال الجزائر، والتي كانت تتجه نحو التفاوض مع الثوار؛ فانتشرت الكتابات الجدارية المعارضة للمفاوضات واستفتاء تقرير المصير، ثم برزت كتابات بعبارات: "نعم" و "لا" على الجدران كإعلام للمواطنين الذين كان معظمهم أميين، فجاءت لتسهيل عملية الانتخاب باختيار كلمة "نعم " للتصويت على استفتاء تقرير المصير.

وهكذا لعبت الكتابات الجدارية دورا مهما في حركية الثورة التحريرية، حتى قادها الشعب المغوار إلى الحرية والنصر على المستعمر الفرنسي، وكانت هذه لمحة عنها خلال فترة الاستعمار .

2.4. الكتابات الحائطية بعد الاستقلال وخلال عشريتي الارهاب: بانتهاء الحرب التحريرية انتهت الكتابات الجدارية في المدن الجزائرية، لأنها كانت تخدم الثورة فقط ولم يعد لها حاجة بعد الاستقلال

فتلاشت ولم يبق منها إلا الشيء القليل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الكتابات الجدارية ليست واحدة من طقوس وعادات الشعب الجزائري، فغابت الكتابات قدرا من الزمن ثم عاودت البروز من جديد، وتلك حقبة أخرى من تاريخ الجزائر هي فترة عاشت فيها جملة من الاضطرابات في أواخر الثمانينات ما بين التيارات والأحزاب السياسية المعارضة لبعضها البعض، فكانت مجسدة لهذا التضارب حيث حملت عبارات سياسية، وبعد أحداث العنف التي وقعت في أكتوبر 1988م التي عمت كل مناطق القطر الجزائري ضد سياسة النظام القائم مما أفضى إلى تغيير الدستور وإعلان التعددية السياسية وإطلاق حرية الصحافة، برزت الكتابات الجدارية من جديد بعبارات مطالبة برحيل رجال السلطة الحاكمة آنذاك، وكانت تحمل دلالات علمانية وإسلامية وتؤكد في مجملها على فساد النظام السابق وعدم أهليته لقيادة البلاد، وبعد أول انتخابات محلية في البلاد في 12 جويلية 1990 م والتي أسفرت عن الفوز الساحق لجبهة الإنقاذ الإسلامية، عَبّر أتباعها عن فرحتهم بعبارات مثل: " **بلدية إسلامية**" التي كتبت عشرات المرات في البلديات و الدوائر التي أعطتهم أغلبية الأصوات.

وبعد اعتقال قيادي جبهة الإنقاذ في جويلية 1991م والتي كانت تمثل أكبر القوى السياسية، ظهرت الكتابات الجدارية بشكل عنيف في معظم المدن تطالب بالإفراج عنهم، وإن كانت تبدو في معظمها منظمة، حيث تكررت العبارات نفسها في معظم المدن مثل: " **إما الانفراج أو الانفجار**"، وهو تهديد باستخدام العنف في حالة عدم إذعان السلطة للضغوط وإفراجها عن القيادة المحبوسة، كما ظهرت عبارات التشجيع مثل: "**يا علي يا عباس الجبهة دائما لا باس**" في إشارة إلى السيد "علي بلحاج" والدكتور الراحل "عباسي مدني" أكبر قيادي الإنقاذ نفوذا وشعبية، كما ظهرت رموز للحزب نفسه باللغة الأجنبية في كل مكان "Fis"، وفي شتاء العام نفسه ومعارضة لحزب الإنقاذ برزت كتابات جدارية أخرى مطالبة بتطبيق النظام العسكري الذي كان في ذلك الوقت بقيادة رئيس الجمهورية " الشاذلي بن جديد" لردع هذا الحزب وإيقاف نشاطه، ومن بينها كتابة: " **لا لإيران ثانية في الجزائر**" وكذلك: " **أوقفوا زحف الفاشية** "، و" **أنقذوا الديمقراطية**"[17] وقبل شهر من يوم الاقتراع صرح الرئيس بأنه على استعداد لاستنساخ التجربة الفرنسية– الرئيس فرنسوا ميتران يساري والبرلمان والحكومة يمينيان –، وهذا فقط لطمأنة أنصار جبهة الإنقاذ الخائفين من أن تكون نتيجة الانتخابات نقمة عليهم، فرد عليه الشارع بالكتابات الجدارية التي وصفته بالجاهل الذي يلعب بالنار، ثم بعدها برزت العديد من الكتابات المتزامنة مع موجة الإرهاب التي لم تسلم منها أي مدينة من المدن الجزائرية، وظهرت عبارة مدونة بالخط العريض " **أنقذوا الجزائر**"، ورغم حظر التجوال المفروض إلا أنه كانت هناك مجموعات من الشباب تخرج ليلا وتكتب عبارات التهديد والوعيد التي تندد برئاسة اليمين

زروال للبلاد وبتنظيمه للانتخابات الرئاسية في 1995م فكتب هؤلاء" **يا زروال يا طاغوت ستموت ستموت...** " وغيرها.

وفي هذه الفترة التي ارتفعت فيها موجة الإرهاب حيث بلغ نشاطه ذروته من تقتيل وذبح للمواطنين الحد الذي يكفي للتعبير عن حقدهم، وراحت المجموعات الإرهابية تتفنن في التنكيل بالضحايا وجثثهم من قطع الرؤوس وتعليقها على مداخل المدن بغية زرع الرعب والهلع في نفوس المواطنين، وضمن جملة التمثيلات التي عاشها المواطن الجزائري ما حدث في "حوش جرو" بمنطقة بوفاريك، حيث هاجمت مجموعة إرهابية أكواخ فقيرة فقتلت حوالي 13 شخصا دفعة واحدة معظمهم من الأطفال والنساء، ووقعت جريمتها بدم الضحايا على الجدار، فكتبت اسم "**الجماعة الإسلامية المسلحة السنية السلفية الموحدة**"، وكانت المرة الأولى التي تظهر فيها الكتابة الجدارية بالدم البشري، وهي نقلة غير مسبوقة ثم أصبحت فيما بعد أمرا اعتياديا، كما عرفت الجزائر موجة من المشادات وأحداث الشغب المدنية مثلما حدث عام 2001م في مواجهات بين قوات الدرك الوطني لمنطقة القبائل وبين السكان، وبالضبط في بلدية بني دوالة حيث قتل شاب برصاص جندي وكانت إصابته بليغة فتعذر نقله لشدة المواجهات وقبل لفظ أنفاسه، كتب في المكان الذي سقط فيه بدمه على الجدار عبارة: " Vive La Liberté " **تحيا الحرية** "، وكانت هذه الواقعة التي اهتز لها الشارع الجزائري مرة ثانية، حيث برزت الكتابات الجدارية بهذا النمط بعد عشرية الإرهاب.

لقد حاولنا فيما سبق أن نستعرض أهم النقاط التي برزت فيها الكتابات الجدارية، مع ذكر ظروفها التي أدت إلى ظهورها، وإن كانت العشرية الدموية التي عاشتها الجزائر أكثر تميزا عن مثيلاتها في الدول الأخرى[18].

وما يمكننا استخلاصه أن الكتابات الجدارية في الجزائر، إنما ظهرت خلال فترة الاحتلال فجاءت كأداة للتعبير والتوعية وطلب الوحدة لأجل الحرية والنضال، ثم غابت بعد ذلك نهائيا ولم يعد لها أثر، لكن وبمجرد الانقلابات السياسية والأحداث العنيفة التي عرفتها الجزائر، عادت وبشكل عنيف جدا وحملت في سماتها أبعاد العنف والمأساة التي عاشها الشارع فكتبت بدم ضحايا الإرهاب، ثم بعد الهدوء النسبي عاودت الظهور بسبب أحداث الشغب والمواجهات القبلية التي عاشتها البلاد، وخصوصا في المناطق القبائلية (أحداث العروش).

3.4. واقع الكتابات الجدارية في الجزائر:

وبين أحداث الماضي ومراهنات الحاضر فإن الكتابات الجدارية حملت عدة أبعاد سياسية واجتماعية وحتى ثقافية، كما برزت بمعاني أخرى للتعبير عن أحلام الشباب ومشاكلهم التي تميز حياتهم، فاختلفت مواضيع الكتابات من أحلام الهجرة إلى الخارج، إلى معاناة من البطالة والفقر، إلى المشاكل الاجتماعية كالطلاق والتفكك الأسري، وغيرها من العوامل التي تدفع بهؤلاء الشباب إلى تجسيد تطلعاتهم وشكاويهم في كتابات مختلفة اللون والأداء، حيث جسدت معاناتهم التي تعبر عن القمع والطلاق في آن واحد، وكذلك عبارات الحب المنتشرة في كل مكان، كأنهم يريدون الخروج من الدوائر الخفية إلى العلنية مجسدة في رسومات لقلب يخترقه سهم أو عبارات باللغة الأجنبية وكذلك مواضيع رياضية مناصرة لفريق ما أو معارضة له، إضافة إلى مواضيع أخرى تحمل معاني الهجرة وطلب العمل، كالعبارة التي وجدت على جدار لبناية في طور الإنجاز ببلدية جسر قسنطينة في ضواحي العاصمة "**اذهبوا إلى بريطانيا فإن بها ملكة لا يظلم عندها أحد**"، ويبدو أن من كتبوها تأثروا بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بأن: "**اذهبوا إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد** "، وأصبحت بريطانيا في السنوات الأخيرة قبلة لأعداد متزايدة من الشباب الجزائريين لسهولة إجراءات الإقامة وتوفر فرص العمل بها، وفي بلدية الثنية شرق العاصمة توجد كتابات بالخط الكبير بالعربية والفرنسية والانجليزية تشيد بلندن منها عبارة: " **لندن جنة فوق الأرض...**"، و "**في لندن تتلقى أجرك قبل أن يجف عرقك...** "، وأيضا "**لندن بلد الحرية**" وغيرها من العبارات المغرية التي صورت سهولة الحياة والرغبة في بلد الضباب بريطانيا، وهي مجموع الصور التي تبرز جملة المواضيع المختلفة التي تناولتها الكتابات الجدارية، لكننا لسنا بصدد فرز محتواها ورموزها، وإنما بشكل آخر أوردنا المواضيع التي عبرت عنها تلك الكتابات.

لقد أصبحت الكتابات الجدارية في الجزائر في الوقت الحالي متداولة شأنها شأن بقية الدول العربية،– في حين أخذت عند الدول الغربية منحنيات أخرى فنية– حيث تشهد هذه الكتابات أولى بداياتها، وهي تنتشر بشكل مثير في كل المرافق العمومية وفي المراحيض العامة، وعلى أسوار وجدران المؤسسات التعليمية والمهنية وحتى التكوينية، وهي بشكل متزامن في معظم ولايات الوطن من العاصمة إلى قسنطينة إلى سطيف ووهران وعنابة وحتى بعض الولايات الجنوبية، ولكننا لسنا بهذا الصدد لإحصاء عددها أو مواضيعها، بقدر ما يجب التنظير لها أولا.

4.4. الكتابات الجدارية الافتراضية وشعارات الحراك الشعبي(فيفري 2019)

اخذت الكتابات الجدارية بعدا آخر على الجدران الافتراضية والتي اقصد بها صفحات التواصل الاجتماعي التي تزخم بها شبكة الانترنت، وقد اتيحت فضاءات جد واسعة للتعبير، الشتم، الاطراء، الرفض، التصريح بالممنوع والمرغوب، النصائح الدينية والدنيوية، اعطاء الرأي حول الخدمات المتاحة، وصف المسؤولين وربما التجريح في اعراض الناس...، لذا انخفضت والى حد كبير الكتابة على الجدران(الجرائد المجانية كما كانت تسمى سابقا)، وربما المتجول منا قد تصادفه احيانا عبارات تحمل رموزا وكذا اخطاء املائية فادحة؛ لان غالبية كتّابها ممن انقطعوا عن الدراسة مبكرا، وبات ملاذ الشباب هي هواتفهم الخلوية؛ يجلس الى ركن وحيدا ويكتب اي شيء يخطر بباله، هذه المساحات الافتراضية ليست خصيصا للشباب بل راح الكل يكتب من الاستاذ الجامعي الى الطالب الى الصحفي والقاضي، التاجر، الحرفي والبطال لا فرق بينهم ما داموا يكتبون بأسماء معظمها مستعارة.

في الاونة الاخيرة وبالضبط بتاريخ:22 فيفري من سنة 2019 وبخروج الالاف بل والملايين من الشعب الجزائري الى الشارع خرجت معهم عبارات وكتابات ليست حائطية وانما دُونت على لافتات تفاوتت احجامها، وراح كل مواطن يكتب الشعار الذي يشرح موقفه ورأيه اتجاه الوضع المتردي الذي عاشته البلاد من فساد ونهب لمقدرات البلاد، فكتبوا "...يا السراقين أكليتو لبلاد ... في اشارة الى النهب الفضيع الذي طالته ايادي من كانوا على سدة الحكم وكتبوا "...جيش شعب خاوة خاوة...في رمزية لتوحيد عامة الناس مع حماة الوطن، ولعلها تحوي اشارة الى رغبة المواطن البسيط في اخذ ميثاق الحماية من ابناء الجيش الشعبي، كما كتبوا اهم العبارات" تتنحاو قاع..." وقد دونت بعد ما قالها احد الشباب البسيط لصحفية عربية كانت تصور لصالح قناة اعلامية معينة، عقبها لاقت هاته العبارة تداولا جماهيريا كبيرا، في اشارة الى رفض النظام والرغبة في ازاحة كبار مسؤولي الدولة عن سدة الحكم فرفعوا ايضا عبارة" ترحلوا يعني ترحلوا..."Système dégage"

لقد كتبوا وكتبوا...ولا يزالوا يكتبون مُشهرين اراءهم وافكارهم وتطلعاتهم ليس لمن حكموا بالخراب على الوطن بل حتى كرسالة لكل الشعوب المجاورة منها والبعيدة، كتبوا رافضين لتدخل أي جهة اجنبية، كتبوا مُنوهين لمن يتربص بالحدود كأن بهم يقولون **انظروا ما نحن فاعلون واحذرو الاقتراب والتعدي... فرفعت شعارات: "لا واشنطن...لا باريس...الشعب يخير الرئيس..."** وكتبوا مطالبين بمعرفة مآل خيرات

البلاد شعار"**1971 تأميم المحروقات...و 2019 تأميم المسروقات...**" وقد تفاوتت الشعارات الشعبية التي ترفعها مختلف اطياف الشعب ما بين الابداع الى السخرية وتترافق احيانا برسوم كاريكاتورية ساخرة تنم عن الالم والتهميش(الحقرة) التي طالت ابناء الوطن، وتحمل احيانا عبارات تشير الى الصمود والتمسك بمطالب شرعية" لله درك يا جزائر ... لك الله يا جزائر"..." ما زال الخير في بلادنا... الجزائر ولودة الاحرار..."

حتى المواطن الأمي الذي لا يجيد الكتابة، ما عليه الا التوجه الى احدى طاولات الكُتّاب الذين تطوعوا خدمة لرفع كل الشعارات، يكتبون على لافتات وعلى اي شيء يصلح للكتابة ويمكن قراءته تماما مثلما بدأت في السبعينيات الكتابات الجدارية حيث بدأت بعبارات الشباب المقهور المداسة كرامته.

لقد باتت عبارات الحَراك الشعبي الجزائري انموذجا يحتذى به في تجسيد حق التعبير، ولا يسعني المقام هنا لعرض كل ما كتب ولايزال يكتب خلال الحَراك الشعبي الذي بدأ ولا يزال(قرابة 09 اشهر) على أمل التفصيل فيه لاحقا في مقالات اخرى.

خاتمة:

لقد كانت الكتابات الجدارية من ازل وجودها رفيقا للإنسان تحكي تفاصيل معيشته وتصف اسلوبه في التعايش مع بيئته على اختلافها، واعتقد جازمة حتى وان تغيرت الازمنة واستبدلت الجدران الحجرية بأخرى اسمنتية، وحتى زجاجية؛ فان الجدران لها صبغة ودلالة رمزية تشير بها الى احتواء الانسان أو بالأحرى الفرد الاجتماعي، وتلف افكاره كما تلف وتحمى جسده، انها السند والمكان الاكثر راحة للتعبير والبوح بما يختلج النفس من معاناة وصراعات نفسية، وهي عند الكثير من المراهقين والمصدومين رغم ضيق مجاله(جدران، دورات المياه) متنفسا وبوتقة يطلعون فيها العالم عما يشتكون منه، وهي فسحة الامل والجريدة العملاقة بسبب اتساع مساحتها(جدران الواجهات واسوار المؤسسات) التي يكتب فيها الشباب المقهور، والمهمش والجانح والراغب في تغير نمط واسلوب الحياة، طالبا من افراد مجتمعه ان يقرأ ويستوعب معاناته، كما وانها الفن والابداع عند كثير من الموهوبين، ونأمل ان تجد الكتابات الجدارية في الجزائر حيزا قانونيا يحمي ممارسيها لتكون اضافة للبيئة والمجتمع لا أن تكون مسيئة لعيون المبصرين لها،

ونأمل أن تحذو بلادنا حذو كثير من الدول التي رأت بحكمة منها احتواء انشغالات شبابها ومواطنيها بدلا من اسكاتهم بخراطيم المياه والعصي والاعتقالات التعسفية.

الهوامش:

[1] خليل، احمد خليل(1979). **مبنى الأسطورة**. دار الحداثة. بيروت. 266.

[2] Baudrillard, J. Kool Killer(1976). Ou l'insurrection par les signes in L'échange symbolique et la mort. Gallimard .p 45.

[3] Chalfant H. & Martha, C. Subway Art (1984). Edition Thames and Hudson.p.33.
[4] Oxford English Dictionary (2006). 1édition. University Press. 2006. p. 167.

[5] ابن منظور، الإفريقي(1968). لسان العرب. مجلد 4. دار الصادر. بيروت. 407.
[6] سهيل، إدريس(2004). المنهل فرنسي- عربي .دار الآداب للنشر والتوزيع. بيروت. ط-33. 586.
[7] Milon, A.(1999). L'étranger dans la ville. Du Rap au Graff mural. Paris : col. Sociologie d'aujourd'hui. PUF.25.
[8] Bilodeau, D. (1990). Les murs de la ville. Les graffitis de Montréal. Montréal liber. p. 30.

[9] حجازي، مصطفى(2001). التخلف الاجتماعي" مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور". ط-8. المركز الثقافي. العربي الدار البيضاء- المغرب. 165.
[10] Bilodeau, D.(1990). Op- cit.p.31.
[11] Marconot, J. M. & autres(1995). Le langage des murs; du graff au graffiti : les presses du langue. p. 08.

[12] سهيل، إدريس(2004). مرجع سبق ذكره. 88.

[13] Rudel, J.(1995). Technique de la peinture : collection PUF. p. 31.
[14] Rudel, J.(1995). Op- cit. pp.32-33.
[15] منصوري، مختار(2004). الإعلام الرسمي والإعلام الغير الرسمي" الكتابة على الجدران نموذجا". رسالة دكتوراه دولة غير منشورة. قسم علم الاجتماع، جامعة السانيا وهران. الجزائر. 181.
[16] حسين، مهند جعفر(اكتوبر2008م). الكتابة على الجدران ما بين الفن والسياسة. مجلة الكترونية أدبية ثقافية العدد02. تصدر عن كربلاء. الموقع الالكتروني.http://www.asdaa - magazine.Org/iraqgraffiti.html .

[17] عطاء، صالح(1989). عندما تتكلم الجدران. (د ط)، مجلة اليوم السابع، باريس. 22.

[18] جريدة القبس.(2008-11-22م). الرسم على جدران الشوارع يشجع على مخالفة النظام العام. العدد 12746. الموقع الالكتروني: http://www.alqabas.com.kw/ArticlePrint.aspx?id=450181&mode=doc